الوضع السياسي والعسكري في بايليك الغرب قبيل تحرير مدينة وهران عام 1792م

The Political and Military Situation in the Bailek of the West Prior to the Liberation of the City of Oran in 1792 AD

بلقاسم بواشرية

– **جامعة ابن خلدون– تيارت. (الجزائر)**belkace1980@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/07/07 تاريخ القبول: 2020/08/10 تاريخ النشر: 2020/12/31

الملخص:

تلعب الظروف المحيطة غالبا بالوقائع التاريخية دورا بارزا في الأحداث، إذ سرعان ما تصبح طرفا رئيس سواءً سلبا أم ايجابا، ولذلك فحادثة تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني عام 1792م، لم يكن وليد الصدفة وإنما تزامن ذلك مع ظروف خاصة من الناحية السياسية والعسكرية، فحتى وان كانت لا ترق الى المستوى الذي نعتبرها كلها أنها كانت في صالح الجزائريين، ولكنها ساهمت بشكل أو بآخر في اضعاف العدو من جهة ومن أخرى كانت عاملا مشجعا للباي محمد بن عثمان الكبير باي الغرب الجزائري أن يدخل مضارب الاسبان بكل فخر واعتزاز يوم 24 فيفري 1792م.

الكلمات المفتاحية: بايليك الغرب – معسكر – محمد بن عثمان الكبير – وهران – الاحتلال الاسباني.

Abstract:

The circumstances surrounding historical events often play a prominent role in the events, as they quickly become a major party, either negatively or positively. Therefore, the liberation of the city of Oran from the Spanish occupation in 1791 was not the result of chance, but coincided with particular political and military conditions. Even if it did not live up to the level that we all think was in favour of the Algerians, it contributed in one way or another to the weakening of the enemy on the one hand and, on the other hand, was an encouraging factor for the late Mohamed Ben Othman al-Kabir in the Algerian West to enter the Spanish sites with pride on 24 February 1792

Keywords: Bailekof the West - camp- Muhammad Ibn Othman al-Kabir - Oran - Spanish occupation.

مقدمة

قسمت الجزائر إداريا خلال العهد العثماني إلى مقاطعات عرفت بالبياليك في إطار تنظيم الدولة الناشئة وضمان حسن التسيير بها، فكانت أربعة بياليك كل منها لها مَيِّزَاتُها الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهي دار السطان وتشمل الجزائر العاصمة وما جاورها، بايليك الشرق وعاصمته قسنطينة، بايليك التيطري وعاصمته مدينة المدينة، بايليك الغرب وعاصمته عرفت انتقالا بين مازونة ومعسكر ثم وهران بعد تحريرها من يد الاسبان نهائيا عام 1792م، وهذا الحدث الأخير هو مدار البحث، وقد اجتمعت ظروف سياسية وعسكرية خاصة، ساهمت في تحقيق الاستقلال لمدينة وهران، فأصبحت الأخيرة عاصمة الاقليم، كما نال الباي محمد الكبير الكردي شرف ذلك الفتح فخلّدت اسمه مآثره الجهادية في تاريخ الجزائر الحديث.

أما الاشكالية التي يقوم عليها البحث، فتتمحور حول الظروف التي كان يعيشها اقليم الغرب الجزائري، قبيل وأثناء تقدم محمد الكبير ومباشرته لعملية الفتح وطرد الاسبان من المدينة نهائيا، بعدما أن أقاموا فيها ثلاثة قرون، إذن:

– فما هو الوضع السياسي والعسكري لاقليم الغرب قبيل دخول الباي محمد الكبير مدينة وهران وخروج الاسبان النهائي من المدينة؟

– كيف تمكن هذا الباي من هزيمة الاسبان، علما أنه قد كانت محاولات عديدة لطرد المحتل الاسباني من المدينة؟

– هل النصر الذي حققه الباي محمد الكبير، يعود لشخصية الأخير وقدرته السياسية والعسكرية؟ أم هناك عوامل أخرى؟

1. حدود بايليك الغرب جغرافيا

يمتد بايليك الغرب من وادي ملوية غربا إلى دار السلطان وبايلك التيطري شرقا، ومن سواحل البحر الأبيض شمالا إلى البيض جنوبا (عباد، 2012م، ص 292)، ومن أهم مدنه وهران مستغانم، أرزيو، وتلمسان وقلعة بني راشد ومعسكر ومازونة وتيهرت، ولقد بلغ بايلك الغرب أقصى اتساعه في عهد الباي محمد الكبير (سليماني، دتا، ص.38).

خريطة وهران والمرسى الكبير والمنطقة الغربية الوهرانية (المزاري، دتا، ص. 210)

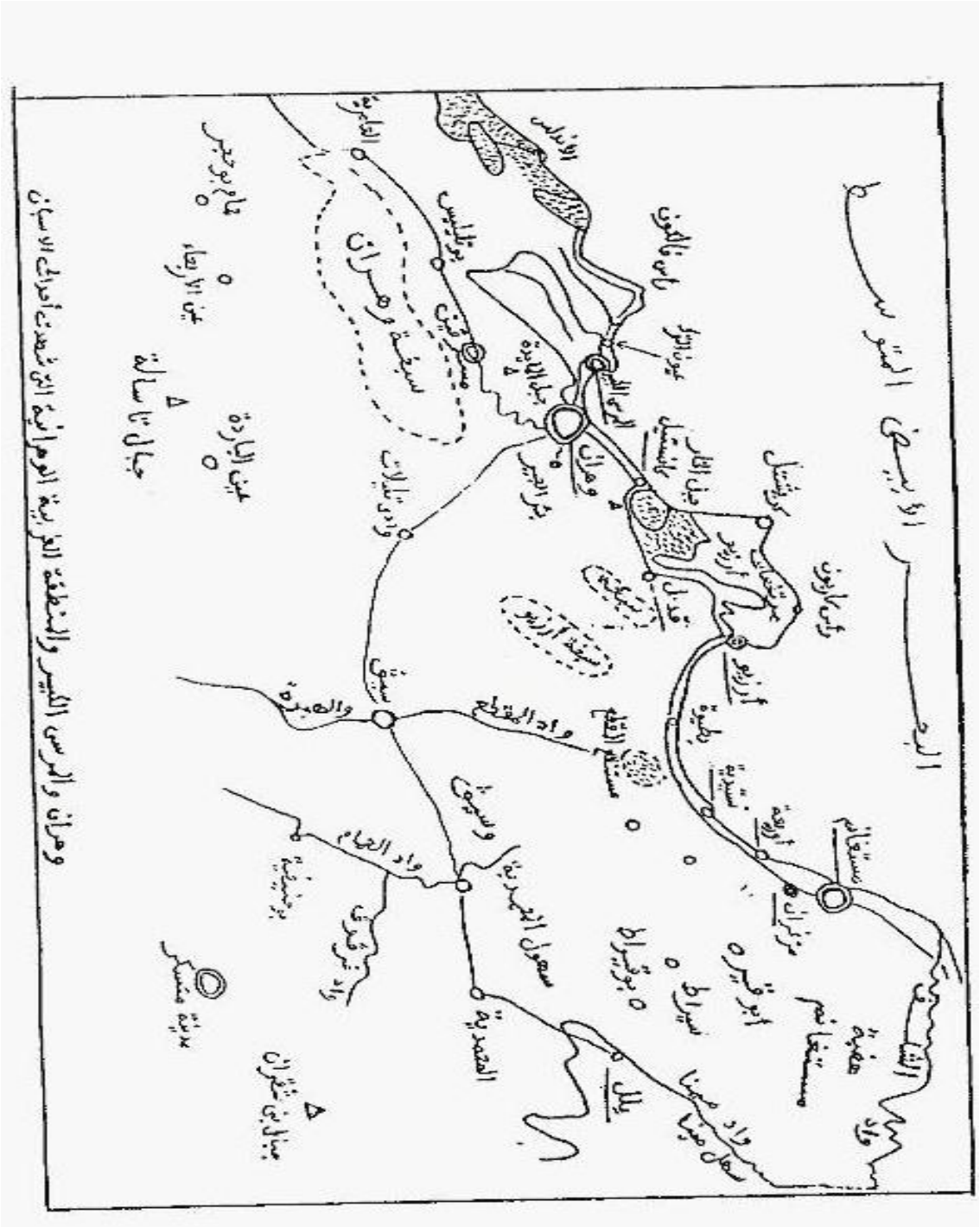

2. الباي محمد الكبير

وهو محمد بن عثمان الكردي ويكنى بأبي عثمان وله كنى كثيرة تشريفا له ولما تميز به من خصال فهو أبو علي محمد أبو الفتوحات أبو النصر أبو المواهب أبو الربيع أبو الفتح المجاهد المنصور، ولقب بـ "الكبير" إكراما له عشية فتحه لمدينة وهران وافتكاكها من يد الاحتلال الاسباني، أما نسبه من جهة أمه فيعود لزائدة

وهي جارية أهداها سلطان المغرب مولاي اسماعيل لأبيه الذي كان من أشراف المدينة يقال له محمد بن عيسى اللمداني أبوه أبو اسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم الكردي الذي كان خليفة على ملیانة ثم ارتقى فأصبح بايا على التيطري، يصفه وزيره تيدنا في مذكراته أنه ما بين الاربعين والخامسة والاربعين من عمره وذاك حين التقاه أول مرة ويضيف أنه كان جميل الوجه وذو لحية سوداء، شديد البياض شديد الانسانية وذا سلوك طيب، بالاضافة إلى ذلك ثقافته الواسعة ... (اعميراوي، 2003م، ص. 54، 55)، ما نلاحظه هنا وصفه بشديد البياض إلا أن ما يذكره غيره عنه أنه "شديد السمرة" فقد أطلق عليه لقب الأسود، في الواقع هناك كلام كثير لتيدنا الوزير يخالف تماما كلام معاصريه الذين خلدوا ذكره في كتاباتهم.

كان ذا اهتمام خاص بالعلم والثقافة والعلماء والبنيان خاصة المدارس والمساجد في تلمسان ومستغانم(درعي، 2016م، ص. 154)، فحسن بذلك طريق العلم في عهده، كما كان معينا للفقراء والمحتاجين بل لا يخيب كل قاصد إليه، وهذا ما يؤكده أبو راس الناصري في قوله:

سلطان وهران ما خيب قاصده زهت به وعلت أقاليم الامم

عم بإحسانه بدوا وحاضرها كالغيث للهضبات يروي والأكم(الناصري، دتا، ص. 80)

تولى محمد الكبير الحكم سنة 1192هـ/1778م، جمع كثيرا من الخصال أهلته لأن يكون بايا عادلا في مقاطعته، لكن الملاحظ في الكثير من مصادر العصر أننا نلمس ذلك الاختلاف البيّن في وصفه، فمن جهة نجد عبارات المدح شعرا ونثرا تعطي صورة ذلك الحاكم الذي يرعى حدود الله في الرعية وإحسانه إليها وإلتزامه ضروب العدل بينهم(الناصري، دتا، ص. 80)، (الراشدي، 2013م، ص. 473)، (المزاري، دتا، ص. 261)، لكننا نلمس من جهة أخرى تصرفات تظهره ذلك الحاكم المستغل لرعيته بل المستغل لمنصبه وامتلاكه للقوة التي جعلته في صورة قاطع الطريق أو المعتدي على أملاك الرعية مستعملا في ذلك الحيلة معهم وهذا ما يذكره وزيره تيدنا، أو قل يستطيع كل من يقرأ تلك المذكرات يفهم صورة الحاكم الظالم(اعميراوي، 2003م، ص. 63، 73، 76)، لا ندري هل الوزير تيدنا كان محقا في كل ما يقول أم أنه كلام وضعه بصفته وزيرا حتى تكون له المصداقية على غيره ويستطيع بذلك صنع الصورة التي يريدها هو وليست الصورة التي كانت عند الحاكم محمد الكبير باي الغرب رغم أنه يصرح بصدقه في كل ما يقول.

3. البايليك في عهد الباي محمد الكبير

1.3. التنظيم الاداري في البايليك

ويتشكل الجهاز الاداري في البايليك من عدة مناصب تختلف فيما بينها حسب المسؤولية المنوطة لأصحابها، وهي على التالي:

1.1.3. الباي

وهو أعلى سلطة في البايليك وهو المسؤول عن الأمن والهدوء في كامل حدود البايليك، كما يتكفل بدفع أجور الحامية التركية وكذا الاهتمام بالمرافق العامة في المدن الكبرى وتأمين الطرق واستمرار الاتصال بالعاصمة الجزائر، وبالاضافة إلى ذلك فهو المسؤول أيضا عن تأمين موارد الدولة وثباتها إذ كان لا بد عليه من دفع الدنوش الصغرى كل ستة أشهر والدنوش الكبرى كل ثلاث سنوات(سعيدوني، 1984م، ص. 20).

2.1.3. الخليفة

نائب الباي يخلفه عند غيابه كما يقوم بتقديم الدنوش الصغرى للجزائر نيابة عن الباي.

3.1.3. الباشا خزناجي

يشرف على مداخيل ومصاريف الخزينة بالبايليك، حيث يتولى إعداد المحلة وقيادتها فهو المسؤول المباشر عنها، ومن مهامه أيضا التحقق من العملة إن كانت صحة أو زورا بالإضافة إلى تولي مسؤولية جميع الخدم داخل قصر الباي(اعميراوي، 2003م، ص. 63).

4.1.3. آغا الدائرة

ويعرف كذلك بعدة ألقاب منها آغا العرب أو الباشا آغا أو خوجة الخيل، حيث يتولى قيادة الحامية التركية الموجودة داخل البايليك، وتحت تصرفه أيضا فرسان المخزن ومراقبة البايات في تعاملهم مع السلطة المركزية (سعيدوني، 1984م، ص. 21).

5.1.3. شيخ البلد أو قائد الدار

وتحت تصرفه جميع شؤون سكان البلد على اختلاف طوائفهم، فهو المسؤول المباشر على أملاك الدولة وخدمة الحامية التركية، ويتبع هؤلاء جميعا موظفون سامون مثل الباشا كاتب وكاتب الباي وحافظ دفاتر الادارة المحلية بالمقاطعة، وهناك مجموعات أخرى من الموظفين إلا أنهم لا يدخلون ضمن ديوان الباي كقياد المدن وشيوخ القبائل والشواش وحاملي الأوية وقائد المقصورة أي حاجب الباي وقائد السيسي وقائد السيوانة وقائد الدربية وقائد الطاسة والباشا فراش والباشا قهواجي ...وغيرهم(سعيدوني، 1984م، ص. 21).

2.3. الوضع السياسي والعسكري

أما الجانب السياسي والعسكري فقد تميز خلال القرن 18م أو بالأحرى مع نهايته أي فترة الباي محمد الكبير، بالعمل على جبهتين:

1.2.3. الجبهة المحلية أو علاقة الباي مع القبائل

اختلفت علاقة باي الغرب مع القبائل حسب الظروف الراهنة فهناك قبائل موالية للحكم التركي أو داخلة تحت السيادة التركية في البايليك واهمها قبائل المخزن وهي القبائل المواجهة للجبال كسبخة وهران وهضبة الشلف الوسطى، حيث أعفيت من الضرائب بالإضافة إلى حصولها على بعض الامتيازات مثل آغا الدوايرة وآغا الزمالة، وقد بلغ عددهم في القرن 18م 26 قبيلة ترأسها قبائل الدوايرة والزمالة، أما المصطلح في حد ذاته وهو المخزن عبارة عن تجمعات سكانية تعميرية تتميز بكونها منطقة فلاحية عسكرية معفاة من كل الضرائب باستثناء الرسوم القانونية، ومهمتها الأساسية فتكمن في استعدادها الدائم للقتال إذ تواجه كل القبائل الثائرة ضد السلطة(عباد، 2012م، ص. 294).

إن أهم ما كان يقوم به الباي هو توجيه المحلة مرتين في السنة الربيع والخريف؛ وهي حملة تجوب كل أرياف الاقليم من أجل جمع الضرائب التي ستوجه إلى دار السلطان كل ستة أشهر وهي ما يعرف بالدنوش الصغرى، حيث كان الباي يستغل فترة المحلة لممارسة الجيش أعماله العسكرية تجاه القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب؛ أو تلك التي ناصبت العداء للسلطة التركية في البايليك ولم تعترف بها كممثل للسيادة العثمانية في المنطقة هذا من جهة، ومن أخرى؛ مد النفوذ التركي عليها.

وكانت المحلة تتألف من القوة التركية في البايليك وفرسان المخزن تقدر ما بين 500 و1000 فارس وتتراوح مدة المحلة من 6 إلى 7 أشهر تستخلص الضرائب وتعاقب الممتنعين، إذ تجوب نواحي غريس ووادي مينا وجهات السرسو وقد تصل في بعض المرات إلى الجهات اليعقوبية (الهضاب العليا الوهرانية)، ومن هذه الحملات نذكر حملة محمد الكبير باي الغرب 1785م بنواحي الأغواط لتوسيع نفوذ البايلك وإخضاع المناطق النائية(سعيدوني، 1984م، ص. 36، 37)، فمن جملة القبائل التي أخضعها الباي قبيلة هاشم بل جعلها ضمن قبائل المخزن، كما عمل على تشتيت قبيلة الأعشاش قاطعة الطرق على الحدود المغربية، ومن حذا حذوها من قبائل كقبيلة فليتة والمحاية وأولاد سيدي علي بن طلحة، أما الجهة الجنوبية فقد فرض الضرائب على قبيلة الأحرار وأخضع قبيلة حميان وأولاد سعيد وعمور وكل قبائل راشد، ومن أهم ما واجه الباي محمد الكبير 1784م هو حملته على الأغواط وعين ماضي مركز الطريقة التيجانية حيث أخضع التيجانيين وفرض عليهم الضرائب(عباد، 2012م، ص. 174، 175)، لذلك سوف تستغل هذه الطريقة الفرصة بعد موت الباي محمد الكبير لتعود من جديد وتعلن عصيانها بل حربها على بايليك الغرب محاولة بذلك الاستقلال عن السلطة

المغربية، بل هذا ما دفعها إلى موالات الاحتلال الفرنسي عند دخوله وهران رغبة في المحافظة على ما بيدها من أقاليم في الجنوب الغربي حتى أنها ترفض بيعة الأمير عبد القادر.

2.2.3. جبهة الاسبان

وهي ذلك الاهتمام الخاص الذي وضعه الباي محمد الكبير نصب عينيه طوال فترة حكمه، إذ بذل أقصى جهد ملكه في سبيل تحقيق الاستقلال وطرد المحتل الاسباني من مدينة وهران، حيث ناصب الاسبان العداء الشديد رغم فترات الهدنة التي كان يستغلها إلا من أجل إعادة ترتيب نفسه من جديد.

لقد كان الباي محمد الكبير يباشر أعماله العسكرية على هذه الجبهة دون انقطاع وذلك حتى لا يترك المجال للعدو كي يستعيد النفس، إذ كان الهدف من التكثيف للهجمات على مدينة وهران هو دفع عادية المحتل الذي ما انفك يجرد الحملات في الاعتداء على القبائل المجاورة لاقليم وهران التابعة للبايليك، في نفس الوقت يعمل على ارهاق العدو وزرع الملل لقطع كل أمل في البقاء، ففي سنة 1780م أرغم الاسبان المتحصنين بالأسوار بالخروج إليه ما أدى إلى وقوع معركة بين الطرفين، استطاع خلالها الكبير أن يحقق انتصارا باهرا على قوات العدو، ولم يكتف بذلك إذ استمر في مضايقتهم وحصارهم حتى استطاع في 14 سبتمبر عام 1784م أن يقطع عنهم مجرى الماء الذي يسقي المدينة وفي يوم 26 من نفس الشهر فتح البرج الأحمر واستمرت المعارك لا تكاد تنقطع (المدني، دتا، ص. 523).

وهذا ما فرض على الاسبان أن يسعوا إلى السلم وتوقيف الصراع ودام ذلك مدة سنتين 1785م–1789م، وخلال هذه الفترة استغل الباي الوضع لصالحه إذ جعل من مهاجمته للقبائل المتعاونة مع الاحتلال فرصة لمحاصرة وهران، إلى أن جاءت الفرصة عام 1790م، وذلك بعد حدوث زلزال وهران الذي كان بمثابة محفز وفرصة جعلت الباي يستأنف الحرب من جديد مع الاسبان لطردهم نهائيا منها وهذا ما حدث مع نهاية عام 1791م وبداية عام 1792م(بلغيث، 2013م–2014م/1434هـ–1435هـ، ص. 27، 28).

لم تكن العمليات العسكرية التي يشنها الباي محمد الكبير على وهران موجهة ضد الاسبان فقط، فقد كان لا بد له من مواجهة القبائل المتحالفة معهم أو التي انضوت تحت حكمهم سواء راغبة أو راغمة من أجل الحفاظ على مصالحها خاصة الاراضي الزراعية القريبة من وهران (سهلي مليتة وسيراط)، وقد كانت جماعات ليست بالقليلة العدد، إذ يحصيها سي عبد القادر المشرفي في ثماني جماعات وهي كرشتل وشافع وحميان وغمرة وجيزة وأولاد عبد الله وأولاد الونازرة وأولاد علي(عباد، 2012م، ص. 306).

3.2.3. علاقته بالسلطة المركزية –الجزائر

باعتبار بايليك الغرب هو احدى مقاطعات الدولة فإن التبعية المباشرة للداي في العاصمة هي الرابط بين الطرفين، إذ ولا بد لهذا الرابط من مظاهر تجسدت في تقديم الضرائب (الدنوش الصغرى والكبرى)، وتقديم الدعم المادي والعسكري حين تدعو الضرورة لذلك كحدوث الجوائح الطبيعية من انتشار للوباء أو زلازل أو غيرها، وأحيانا كانت دار السلطان تستدعيه لمواجهة الأخطار الخارجية، وهذا ما وقع خلال سنة 1775م من هجوم اسباني بحري على مدينة الجزائر، حيث خيم خليفة باي معسكر محمد بن عثمان ومعه 4 آلاف فارس من الدواير بالإضافة إلى قوات الخزناجي، في نفس الوقت رابط الباي إبراهيم عند مستغانم وذلك لقطع الطريق على الاسبان المتواجدين في وهران حتى لا يتقدمون بأي مدد للجيش الاسباني، لكن القوات الاسبانية رجعت بأكبر قدر من الخسائر ما جعلها تعيد الكرة عام 1783م هنا تقدم باي الغرب هذه المرة وهو محمد الكبير بدعم عسكري آخر نحو العاصمة قدر بحوالي 20 ألف فارس(عباد، 2012م، ص. 169، 170)، وبذلك نلاحظ أن باي الغرب خاصة محمد الكبير كان حاضرا دوما في الأيام العصيبة التي تحل بالسلطة المركزية في العاصمة.

وأحيانا أخرى قد تواجه دار السلطان تمرد احدى القبائل، وهذا ما حدث مع قبيلة سوماطة القوية الواقعة بين موزاية وبني م مراد التي تمردت على السلطة المركزية في دار السلطان، حيث قطعت الطريق الرابط بين المدية والجزائر، فاستدعى الداي باي معسكر محمد الكبير لمواجهتها، إذ استطاع التغلب عليها وغنم منها ألف رأس من الأغنام وعددا من الخيول والأبقار وكميات كبيرة من الحبوب، لم يكتف هذا الباي بما حقق من اخضاع تلك القبيلة بل تتبع فلول الفارين منها نحو القبائل المجاورة التي آوت الفارين من سوماطة فأدبها هي الأخرى ليعود بعدها نحو إقليمه(عباد، 2012م، ص. 175).

خاتمة

يعتبر تحرير وهران من يد الاحتلال الاسباني حدثا له من الأهمية بمكان في تاريخ الجزائر الحديث، ولذلك فالباحث في هذا الحدث يمكن له الوصول إلى بعض النتائج منها:

– إن الاحتلال الاسباني لمدينة وهران فرض على بعض القبائل المجاورة للمدينة أمرين: إما المقاومة وبالتالي الرهان الأكبر لها هو الانهزام أي فقدان للأراضي الزراعية والسهول الخصبة مصدر عيشها، وإما التحالف

والموالاة وعندها الاحتفاظ بالأراضي والنشاط الزراعي بل والتجارة في المناطق الساحلية الداخلة في إقليم وهران، كان الاختيار الثاني هو الأنسب لتلك القبائل، ما أعطى لها صورة غير مشرفة في تاريخ المنطقة.

– شغلت شخصية الباي محمد الكبير الحيز الأكبر من اهتمام المؤرخين والباحثين نظرا لما تميز به من مؤهلات وقدرات سياسية وعسكرية اكتسبها من خلال تجربته وخبرته السابقة كيف لا وهو ابن باي التيطري عثمان الكردي، هذه المؤهلات جعلت منه الرجل المناسب في بايليك الغرب خاصة وأن وهران قد ملكها الاسبان منذ زمن بعيد ولا يليق بهم إلا رجل في مقام الباي محمد الكبير.

– من خلال قراءة وتصفح النصوص التي تتحدث عن تفاصيل شخصية الباي محمد الكبير نلاحظ هناك تضارب كبير خاصة بين وزيره تيدنا وبين من خلدوا ذكره شعرا ونثرا، لذلك وجب دراسة تلك الأقوال ومقارنتها ببعضها دون إغفال نمط العيش وطبيعة نظام الحكم خلال تلك الفترة...فربما تتراءى للقارئ تصرفات إذا ما وضعناها على واقعنا اليوم تبدو مريبة للغاية، وأبرز مثال في ذلك بيع المناصب خاصة تلك التي تكون محل تنافس مجموعة من الأشخاص.

المراجع

1– اعميراوي حميدة، (2003م). الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى، الجزائر.

2– بلغيث عبد القادر، (2013م–2014م/1434هـ–1435هـ). الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني(مذكرة ماجستير)، إشراف محمد الحمدي، جامعة وهران، ص. 27، 28.

3– درعي فاطمة، (2016م). العالم مصطفى بن زرفة الدحاوي ورحلته القمرية، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 13–14، جامعة بلعباس.

4– الراشدي أحمد بن محمد بن علي بن سحنون، (2013م). الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر.

5– سليماني أحمد،(دتا). النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب.

6– عباد صالح، (2012م). الجزائر خلال الحكم التركي– 1514 م/ 1883م، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر.

7– المدني أحمد توفيق، (دتا). حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492م–1792م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

8– المزاري الآغا بن عودة، (دتا). طلوع سعد السعود في أخبار الجزائر ووهران واسبانيا وفرنسا إلى نهاية القرن التاسع عشر، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت– لبنان.

9- سعيدوني ناصر الدين، (1984م). الجزائر في تاريخ العهد العثماني، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب.

10- الناصري محمد بن أحمد أبي راس، (دتا). عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.